خطبة صلاة الجمعة 4/ 9/ 2026 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(منزلة العلم في الإسلام)

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11].

أخرج الشيخان عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيراً يُفَقِهْهُ فِي الدِّين».

وأخرج أبو داود والترمذي عن قيس بن كثير قال: كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق، فجاءه رجل فقال: يا أبا الدرداء إني جئتك من مدينة رسول الله ﷺ لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ، ما جئت لحاجة، فقال: له أبو الدرداء فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطلُبُ فِيهِ عِلماً سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ الجَنَّةِ، وَإِنَّ الملَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلمِ رِضاً بِمَا يَصنَع، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَستَغفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرضِ وَالحِيتَانُ فِي جَوفِ الماءِ، وَإِنَّ فَضلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضلِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرهَماً، وَرَّثُوا العِلمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ».

عنوان خطبة اليوم: **منزلة العلم في الإسلام**

أيها الإخوة:

دينٌ أصل عقيدته (فاعلم)، ومادة تشريعه الفقه، ومن أراد الدخول فيه فواجب عليه تعلمُ أحكامه وقراءةُ كتابه، فما ظنكم بمنزلة العلم فيه؟

قرآنٌ أول كلمة فيه (اقرأ)، وثاني ما نزل من سوره سورةُ القلم، وذُكر فيه جذر (علم) وما يتصل به من أحرف في أكثرَ من أربعمائة موضعٍ. فما ظنكم بمنزلة العلم فيه؟

نبيٌ يقول عن نفسه «إِنَّمَا بُعِثتُ مُعَلِّماً» وحوّل صحابته إلى (علماء حكماء فقهاء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء) وامتدح أهل العلم حتى قال فيهم: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)، فما ظنكم بمنزلة العلم عنده ﷺ؟

العِلْمُ أَحْلَى وأَغْلَى مَا لَهُ اسْتَمَعَتْ ... أُذُنٌ وأَعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ

العِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلوبٍ، وطالِبُهُ ... للهِ أَكْرَمُ مَن يَمْشِي عَلَى قَدَمِ

بينما نحنُ نستقبلُ عاماً دراسياً جديداً، ونرى أبناءنا يتوجَّهونَ إلى مقاعدِ الدراسةِ وقلاعِ المعرفةِ، أحب أن أخاطب الطلاب والمعلمين والأهالي بثلاث كلمات:

الكلمة الأولى لأبنائنا الطلاب:

أيُّها الأبناءُ إنَّ بداية العام الدراسي فرصةٌ جديدة لبداية مشرقة فاخلصوا النية في طلب العلم وانووا به التقرب إلى الله تعالى بتعلم العلم لخدمة عباده ونهضة أمتكم،

وشمروا عن ساعد الجِد من أول يوم لأن العِلمَ لا يُنالُ بِراحَةِ الجَسَد. وقَديماً قالوا: "مَن لَزِمَ الوِسادَة، فاتَتْهُ السِّيادَة". ولا تَستَحي مِن سُؤالِ مُعَلِّمِك ما أُغلق عليك فالعُلومُ أقفالٌ، والسُّؤال مفتاحها. وقَد قالَ مُجاهِدٌ رَحِمَهُ الله: "لا يَتَعَلَّمُ العِلمَ مُستَحْيٍ ولا مُستَكبِر" [رواه البخاري تعليقاً]، واحرصوا على صُحبَةِ الأخيار. فالمَرءُ عَلى دينِ خَلِيلِه. فلينظر أحدكم من يخالل.

ووقروا معلميكم وراعوا الأدب معهم، فلن يفلح من أساء الأدب مع معلميه فقد قال الأول:

إِنَّ الْمُعَلِّمَ وَالطَّبيبَ كِلَيْهِمَا لا يَنْصَحَانِ إِذَا هُما لَمْ يُكْرَمَا

فَاصْبِرْ لِدَائِكَ إِنْ أَهَنْتَ طَبِيبَهُ وَاصبِرْ لِجَهْلِكَ إِنْ جَفَوْتَ مُعَلّمَا

الكلمة الثانية لسادتنا المعلمين:

يا مَعاشِرَ المُعَلِّمين والمُعَلِّمات، ويا حَمَلَةَ المَشاعِل ويا سادة الأمة؛ إنَّكُم تَقِفونَ على ثغرٍ مِن أعظَمِ ثُغورِ الإسْلام. تعملون عمل الأنبياء في التربية والتعليم،

وأنتُم مُؤتَمَنونَ على عُقولِ الجِيلِ وقُلوبِهِم. أنتم القدوة لأبنائنا بأقوالكم وأفعالكم وهديكم وسمتكم، وإن أعينهم معقودة عليكم وناظرة إليكم يستقيمون إن استقمتم ويميلون إن ملتم، فبالله عليكم خذوا بأيديهم لطريق الحنة.

علموهم مما علمكم الله، واصبروا على الضعيف فيهم، وكونوا رفقاء في موضع الرفق وحازمين في موضع الحزم.

قِف شامخاً عانق هُناك الأنجُما يكفيك فخراً أن تكون مُعلما

الكلمة الثالثة للأهالي:

يا أولياء أمور الطلاب إذا فشا العلم في أرض قل الشر في أهلها، وإذا فشا الجهل في أرض قامت قيامتها، فخذوا بأيدي أبنائكم نحو العلم ومعاهده وادعموا مؤسساته وحملته، وذكروا أبناءكم أن سيرهم في طريق العلم سير في طريق الجنة، دثروهم بالدعاء الصادق وذكروهم باحترام المعلمين والإداريين وتفقدوا أصحابهم وصَلاتَهم.

أيها الإخوة:

روى ابن عساكر في تاريخه قال قال الزهري: "قدمت على عبد الملك بن مروان، فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قال: قلت: من مكة.

قال: فمن خلفت بها يسود أهلها؟ قلت: عطاء بن أبي رباح. قال: فمن العرب أم من الموالي؟، قلت: من الموالي. قال: وبم سادهم؟ قلت: بالديانة والرواية!

قال: إن أهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا.

قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قال: قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال وبم سادهم؟ قلت: بما سادهم به عطاء. قال: إنه لينبغي.

قال: فمن يسود أهل مصر؟ قال: قلت: يزيد بن أبي حبيب. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي قال: من يسود أهل الشام؟ قال: قلت: مكحول. قال: فمن العرب أم من الموالي قال: قلت: من الموالي، عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل.

قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قال: قلت: ميمون بن مهران. قال فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي.

قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مزاحم. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي.

قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت: الحسن بن أبي الحسن. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي.

قال: ويلك فمن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلت: إبراهيم النخعي. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من العرب. قال: ويلك يا زهري فرجت عني، والله لتسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها!

قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو أمر الله ودينه، من حفظه ساد ومن ضيعه سقط.

فالعلم يرفع بيوتاً لا عماد لها والجهل يهدم بيت العز والشرف.

وقد قرأت مئات التراجم لأعلام أمتنا في ألوف الصفحات فوجدت المشترك بينهم الإيمانَ والعلمَ النافع والعملَ الصالح.

الإيمان: الذي يملأ قلبكَ حباً لله وخشـوعاً في محرابه وانكسـاراً بين يديه، وامتثالاً لأمرِه إن أمَر ونهيِه إن نهى.

والعلم النافع: الذي تنفع به نفسك والآخرين، وتدل فيه على الخير والحق.

والعمل الصالح: الخيّر الذي تبرّ فيه العباد والبلاد.

تركَ الأمام النووي لمن وراءه أكثر من خمسـين مؤلَّفاً، بعضُـها أمَّهات، وترك ابنُ قدامة المقدسي أكثرَ من عشرين مصـنَّفا، وورِثنا عن الإمام الغزالي قريباً من المائتين من المصنفات.

بَنَت ستّ الشام في دمشق مدرستين عظيمتين؛ الشامية الجوَّانية والشامية البرَّانية، وَأَنشَأَ نور الدين زنكي المارسـتان النُّوري "دار الحديث النُّورية"، وغيرها من المدارس والجوامع وَأَبطل المُكُوْس والضرائب الجائرة.

حرَّر صلاح الدين القدس، واستنفر ابن تيمية الناس للذود عن البلاد وحرمات العباد، وأنصَفَ سيدُنا عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- الناس من نفسه وأهل بيته وبسَط فيهم العدل.

ومع كل هذا كنتَ ترى دموع هؤلاء العظماء إذا وقفوا في محاريبهم تغسل وجوههم، وترتعد فرائصهم إشفاقاً من ملَك الملوك.

كان ابن تيمية إذا أحرمَ بالصلاة يكاد يخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فإذا دَخَلَ في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميد يمنَةً ويَسرَة.

وربما دخلَت أم الإمام الأوزاعي عليه تتفقَّده فوجدَت موضع مصلاَّه رطباً من دموعه في الليل. وكان يقول: (مَن أطال قيام الليل هوَّن الله عليه وقوف يوم القيامة).

وكان سيدنا صلاح الدين الأيوبي رحمه الله خاشعَ القلب رقيقَه، غزيرَ الدمعة إذا سمع القرآن، وهكذا سائر الأعلام

فمَن أن أراد أن يُبقي له منا ومن أبنائنا ثناءً عَطِراً في الأرض وأجراً كبيراً في السماء فعليه بهذه الثلاثة، الإيمان والعلم النافع والعمل الصالح.

والحمد لله رب العالمين